التضرع

إلى اللّه جلَّ جلاله

قُرئ الكتاب على فضيلة الشيخ

عبدالرحمن بن ناصر البراك

بقلم

عبدالله العنزي

الطبعة الأولى

عام ١٤٤٠هـ

ردمك

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

إن التضرع إلى الله جلَّ وعلا، والذل والإنكسار بين يديه من أهم وأجل العبادات القلبية.

والمؤمن محتاج إلى أن يعرف معنى التضرع والأسباب الجالبة له كي يقوم بهذه العبادة بصدق في يومه وليلته؛ إذ لا يخلو يوم المؤمن وليلته من دعاء الله جلّ وعلا وذكره.

ومما يبين أهمية التضرع إلى الله جلَّ وعلا عدة أمور منها:

١ - أنه من أهم أسباب استجابة الدعاء، ودفع البلاء قبل وقوعه، ورفعه بعد وقوعه.

٢ - أنه من أهم أسباب حلاوة الذكر ولذته وثمرته في قلب الذاكر وبدنه وحياته.

فمن ذكر الله -سواءً أكان ذكره صلاة، أو تلاوة قرآن، أو استغفاراً، أو تسبيحًا، أو غيرها من أنواع الذكر-، ثم لم يجد الذاكر لها حلاوة ولذة وثمرة في قلبه وبدنه وحياته، فليراجع صدق تضرعه وذله وانكساره بين يدي الله جلّ جلاله؛ فإنه روح الذكر ولبه والمقصود منه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – مبينًا أهمية التضرع إلى الله جلَّ وعلا في حال الذكر والدعاء، وأنه روحهما ولبهما والمقصود منهما: (وتأمل كيف قال في آية الذكر: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾[1] [الأعراف: ٢٠٥] الآية، وفي آية الدعاء: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعًا وَخُفۡيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] ؛ فذكر التضرع فيهما معًا وهو التذلل والتمسكن والانكسار، وهو روح الذكر والدعاء)[2].

وقال – رحمه الله تعالى – في موضع آخر عن ذكر فوائد اخفاء الدعاء: (ثالثها: أنه أبلغ في التضرع والخشوع، الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده)[3].

ولما كان هذا الموضوع بهذه الأهمية مع غفلة كثير من المسلمين عنه؛ وظن فئام منهم أنه خاص بالدعاء فحسب، جاءت هذه الرسالة (**التضرع إلى الله جل جلاله**)؛ تذكيرًا لنفسي وإخواني بأهمية هذا الموضوع العظيم سواءً للأفراد أو المجتمعات، وبيانًا لبعض معانيه، ومتعلقاته، وثمراته.

وقد يسر الله لي أن أقرأ هذا الكتاب على شيخي

---

(١) قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾.

(٢) مجموع الفتاوى: (١٥/ ١٩-٢٠).

(٣) المصدر السابق: (١٥/ ١٥).

الفاضل **عبدالرحمن بن ناصر البراك** – حفظه الله –، وكان يرشدني إن رأى خطأً، كما كان يوجهني أحيانًا بزيادة أو حذف، فجزاه الله عني خير الجزاء.

ونظراً لأهمية الموضوع؛ فقد قسمت هذه الرسالة على عدة عناوين ومباحث كالتالي:

- فضل الدعاء.
- فضل الذكر.
- مكانة ومنزلة التضرع إلى الله في الدين.
- حقيقة التضرع إلى الله جلَّ وعلا ومعناه.
- التضرع إلى الله جلَّ جلاله في القرآن الكريم.

المبحث الأول : التضرع إلى الله جلَّ جلاله عند الدعاء.

- نماذج من حياة النبي ﷺ وصحابته رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان في صدق التضرع إلى الله جل جلاله عند الدعاء.

المبحث الثاني: التضرع إلى الله جلَّ جلاله عند الذكر.

- نماذج من حياة النبي ﷺ وصحابته رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان في صدق التضرع إلى الله جل جلاله عند الذكر.

المبحث الثالث: التضرع إلى الله جلَّ جلاله عند البأساء والضراء وعند المصائب والكروب.

- نماذج من حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في صدق التضرع إلى الله جل جلاله في البأساء والضراء وعند المصائب والكروب.
- نماذج من حياة النبي ﷺ وصحابته رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان في صدق التضرع إلى الله جل جلاله في البأساء والضراء وعند المصائب والكروب.
- من ثمرات التضرع إلى الله جل جلاله.
- الأسباب المعينة على التضرع إلى الله جل جلاله.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فضل الدعاء

إن الدعاء من أفضل العبادات البدنية وأجلِّها وأعظمها.

ومعناه: طلب العبد ربه ما ينفعه في دينه ودنياه، ودفع ما يضره فيهما.

أما حقيقته فقد قال الخطابي رحمه الله تعالى: (حقيقة الدعاء استدعاء العبد من ربه العناية واستمداده إياه المعونة، وحقيقته إظهار الإفتقار إليه والتبرؤ من الحول والقوة، وهي سمة العبودية واستشعار الذلة البشرية)[١].

وقال الطِّيبي رحمه الله تعالى: (هو إظهار غاية التذلل والإفتقار إلى الله والاستكانة له)[٢].

وقال المناوي رحمه الله تعالى: (وهو لسان الافتقار بشرح الاضطرار)[٣].

---

(١) شأن الدعاء: (ص ٤)، مطبعة دار الثقافة العربية.

(٢) فتح الباري: (١١/ ٩٥).

(٣) التوقيف على مهمات التعريف: (ص ١٦٦).

وللدعاء فضل كبير، وشأن جليل، وأهمية عظمى، وذلك لعدة أمور منها:

١- عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «الدعاء هو العبادة ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾»[1] [غافر: ٦٠].

قال المباركفوري رحمه الله تعالى: (قال مِيرَك: أتى بضمير الفصل والخبر المعرَّف باللام ليدل أن الدعاء معظم العبادة كما قال ﷺ: «الحج عرفة»[2]، أي: معظم أركان الحج الوقوف بعرفة - إلى أن قال رحمه الله تعالى- قال الطِّيبي: معنى حديث النعمان أن نحمل العبادة على المعنى اللغوي إذ الدعاء هو اظهار غاية التذلل والافتقار

---

(١) رواه الترمذي: (٣٣٧٢)، وقال هذا حديث حسن صحيح، ورواه أبو داود: (٢٩٦٩) وغيرهما، وصححه الألباني في صحيح سنن أبو داود: (١٣٢٩).

(٢) رواه الترمذي: (٨٨٩)، وصححه الألباني في (صحيح سنن الترمذي) (٧٠٥)

إلى الله والاستكانة له، وما شُرعت العبادات إلا للخضوع للباري وإظهار الافتقار إليه، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ [غافر: ٦٠]، حيث عبَّر عن عدم التذلل والخضوع بالاستكبار، ووضع (عبادتي) موضع دعائي وجعل جزاء ذلك الاستكبار الصغار والهوان)[١].

وقال رحمه الله في موضع آخر: (والمعنى: أن الدعاء لب العبادة وخالصها؛ لأن الداعي إنما يدعو الله عند انقطاع أمله مما سواه، وذلك حقيقة التوحيد والإخلاص ولا عبادة فوقهما)[٢].

٢- قرب الله جلَّ وعلا من داعيه وعابديه قرباً خاصاً، كما قال جلَّ وعلا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾. [البقرة: ١٨٦].

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح الترمذي: (٩/ ٢٢٠)، دار الكتب العلمية.
(٢) المصدر السابق.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (فالداعي والساجد يوجه روحه إلى الله، والروح لها عروج يناسبها، فتقرب من الله بلا ريب بحسب تخلّصها من الشوائب، فيكون الله عز وجل منها قريباً قرباً يلزم من قربها)[١].

ويقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (وهذا القرب من الداعي: هو قرب خاص، ليس قرباً عاماً من كل أحد، فهو قريب من داعيه، وقريب من عابده)[٢].

ويقول الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله تعالى مبيناً ثمرة هذا القرب: (وقرب خاص من عابديه، وسائليه ومجيبيه، وهو قرب يقتضي المحبة والنصرة والتأييد في الحركات والسكنات، والإجابة للداعين والقبول والإثابة)[٣].

وقد أشرتُ إلى هذا المعنى تحت عنوان (من ثمرات التضرع إلى الله جل جلاله).

---

(١) مجموع الفتاوى: (٥/ ٢٤١).

(٢) بدائع الفوائد: (٣/ ٨).

(٣) الحق الواضح المبين: (ص ٦٤٠).

٣- الدعاء من أنفع الأدوية، يدافع البلاء ويعالجه، ويمنع نزوله ويرفعه، أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن[١].

عن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا يرد القدر إلا الدعاء**»[٢].

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى مبيناً حالات الدعاء مع البلاء: (وله مع البلاء ثلاث مقامات:

أحدها: أن يكون أقوى من البلاء، فيدفعه.

الثاني: أن يكون أضعف من البلاء، فيقوى عليه البلاء، فيصاب به العبد، ولكن قد يخففه، وإن كان ضعيفاً.

الثالث: أن يتقاوما، ويمنع كل واحد منهما صاحبه)[٣].

٤- الدعاء من أقوى الأسباب في دفع المكروه، وحصول المطلوب.

---

(١) الداء والدواء، (ص ١١).

(٢) رواه الترمذي: (٢١٣٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع: (٧٣٨٧).

(٣) الداء والدواء: (ص ١٢).

٥- الدعاء له عند الله جلَّ وعلا مكانة ومنزلة، ولذا لا يكاد يرد دعاء المؤمن فهو بين ثلاث حالات:

الأولى: إما أن يعطيه ما سأله.

الثانية: أو يدخرها له في الآخرة.

الثالثة: أو يدفع عنه من السوء بقدره.

قال ﷺ: «**ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها أحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها. قالوا: إذاً نكثر، قال: الله أكثر**»[1].

٦- الدعاء جماع الخير ومفتاح التوفيق:

يقول مطرف بن عبدالله الشخير رحمه الله تعالى:

---

(١) رواه أحمد: (١٠٧٤٩) وغيره، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد»: (٥٤٧).

(تذاكرت ما جماع الخير، فإذا الخير كثير: الصيام والصلاة وإذا هو في يد الله، وإذا أنت لا تقدر على ما في يد الله إلا أن تسأله فيعطيك فإذا جماع الخير الدعاء)[١].

ويقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (... فإذا كان كل خير فأصله التوفيق، وهو بيد الله لا بيد العبد، فمفتاحه الدعاء والافتقار وصدق اللجأ والرغبة والرهبة إليه، فمتى أعطي العبد هذا المفتاح فقد أراد أن يفتح له، ومتى أضله عن المفتاح بقي باب الخير مُرتجاً دونه)[٢].

❁ ❁ ❁

(١) الإبانة، لابن بطة: (٢/ ١٩٥).

(٢) الفوائد: (ص ١٤١).

فضل الذكر

إن ذكر الله جلَّ وعلا من خير أعمال العبد وأجلِّها وأيسرها؛ فهو قوت القلوب وغذاؤها، وروح أعمال البدن وحياتها.

قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله تعالى: (اللام للتعليل: أي أقم الصلاة لأجل ذكرك أياي، لأن ذكره تعالى أجل المقاصد، وهو عبودية القلب، وبه سعادته، فالقلب المعطل عن ذكر الله، معطل عن كل خير، وقد خرب كل الخراب، فشرع الله للعباد أنواع العبادات التي المقصود منها إقامة ذكره، وخصوصاً الصلاة.

قال تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾. [العنكبوت: ٤٥] أي: ما فيها من ذكر الله أكبر من نهيها عن

الفحشاء والمنكر، وهذا النوع يقال له توحيد الألوهية، وتوحيد العبادة، فالألوهية وصفه تعالى، والعبودية وصف عبده)[١].

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه المفيد «الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب»: (أن للذكر أكثر من مائة فائدة، وذكر منها ثلاثاً وسبعين فائدة، أذكر منها:

١- أنه يورثه المحبة التي هي روح الإسلام، وقطب رحى الدين، ومدار السعادة والنجاة.

وقد جعل الله لكل شيء سبباً وجعل سبب المحبة دوام الذكر، فمن أراد أن ينال محبة الله عزَّ وجلَّ؛ فليلهج بذكره، فإنه الدرس والمذاكرة؛ كما أنه باب العلم، فالذكر باب المحبة، وشارعها الأعظم، وصراطها الأقوم.

٢- أنه يورثه ذكر الله تعالى له؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: (ص ٥٠٣)، طبعة مؤسسة الرسالة.

ولو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها؛ لكفى بها فضلاً وشرفاً.

وقال ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: «**من ذكرني في نفسه؛ ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأٍ، ذكرته في ملأٍ خيرٍ منهم**»[١].

٣- أنه يورث حياة القلب.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية – قدَّس الله تعالى روحه- يقول: الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء؟!

٤- أنه قوت القلب والروح، فإذا فقده العبد؛ صار منزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته.

وحضرتُ شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إليَّ وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغدَّ هذا الغداء، لسقطت قوتي، أو كلاماً قريباً من هذا.

---

(١) رواه البخاري: (٧٤٠٥)، ومسلم: (٢٦٧٥).

وقال لي مرة: لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي وإراحتها؛ لأستعدَّ بتلك الراحة لذكر آخر، أو كلاماً هذا معناه.

٥- أنه يزيل الوحشة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى، فإن الغافل بينه وبين الله عزَّ وجلَّ وحشة لا تزول إلا بالذكر.

٦- أنه سبب اشتغال اللسان عن الغيبة، والنميمة، والكذب، والفحش، والباطل.

فإن العبد لابد له من أن يتكلم، فإن لم يتكلم بذكر الله تعالى، وذكر أوامره؛ تكلم بهذه المحرمات، أو بعضها، ولا سبيل إلى السلامة منها ألبتة؛ إلا بذكر الله تعالى.

والمشاهدة والتجربة شاهدان بذلك، فمن عوَّد لسانه ذكر الله؛ صان لسانه عن الباطل واللغو، ومن يبس لسانه عن ذكر الله تعالى، ترطَّب بكل باطل ولغو وفحش، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٧- أن دوام ذكر الرب تبارك وتعالى يوجب الأمان من نسيانه، الذي هو سبب شقاء العبد في معاشه ومعاده، فإن نسيان الرب سبحانه وتعالى يوجب نسيان نفسه ومصالحها.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩].

٨- في القلب خَلَّة وفاقة لا يسدُّها شيء ألبتة إلا ذكر الله عزَّ وجلَّ؛ فإذا صار الذكر شعار القلب، بحيث يكون هو الذاكر بطريقة الأصالة، واللسان تبع له؛ فهذا هو الذكر الذي يسد الخلة، ويغني الفاقة.

٩- أن الذاكر قريب من مذكوره، ومذكوره معه، وهذه المعية خاصة غير معية العلم والإحاطة العامة، فهي معية بالقرب، والولاية، والمحبة، والنصرة والتوفيق، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨]، ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠].

وللذاكر من هذه المعية نصيب وافر، كما في الحديث الإلهي: «**أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه**»[1].

---

(١) علقه البخاري في صحيحه: (١٣/٥٠٨ - الفتح)، ووصله في (خلق أفعال العباد) برقم: (٤٣٦)، ووصله ابن ماجة، رقم: (٣٨٩٢).

١٠- أن الذكر يعطي الذاكر قوة، حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لا يطيق فعله بدونه، وقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه في مشيته، وكلامه، وإقدامه، وكتابته، أمراً عجيباً، فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جمعه وأكثر، وقد شاهد العسكرُ من قوته في الحرب أمراً عظيماً.

وقد علَّم النبي ﷺ ابنته فاطمة وعلياً رضي الله عنهما أن يسبِّحا كل ليلة إذا أخذا مضاجعهما ثلاثاً وثلاثين، ويحمدا ثلاثاً وثلاثين، ويكبرا أربعا وثلاثين، لما سألته الخادم، وشكت إليه ما تقاسيه من الطحن والسعي والخدمة، فعلَّمَها ذلك، وقال: «**إنه خيرٌ لكما من خادم**»[١].

فقيل: أن من دوام على ذلك، وجد قوة في بدنه مغنية عن خادم)[٢].

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٣٧٠٥)، ومسلم، رقم: (٢٧٢٧).

(٢) انظر: (الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب)، لابن القيم، تحقيق: عبدالرحمن بن حسن بن قائد، إشراف: بكر بن عبدالله أبو زيد: (ص ٩٤-١٨٦)، طبعة دار عالم الفوائد.

مكانة ومنزلة التضرع إلى الله في الدين

إن التضرع إلى الله جل جلاله من أعظم أعمال القلوب وأجلها؛ لذا كان له المنزلة العالية والمكانة العظيمة في الدين، وذلك لما يلي:

١- أن التضرع إلى الله جلَّ وعلا والذل والإنكسار بين يديه من أقرب الأبواب وصولًا إلى محبته سبحانه وتعالى.

يقول ابن القيم -رحمه الله تعالى-: (إن الذل والانكسار يزرع في قلب العبد محبة الله جل وعلا، فيفتح له منها باب لا يفتح له من غير هذه الطريق، وإن كانت طرق سائر الأعمال والطاعات تفتح للعبد أبوابًا من المحبة؛ لكن الذي يفتح منها من طريق الذل والانكسار والافتقار وازدراء النفس، ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم؛ بحيث يشاهدها ضيعة وعجزًا، وتفريطًا وذنبًا وخطيئة: نوع آخر وفتح آخر)[1].

---

(١) انظر: مدارج السالكين (١/ ٧٣٩-٧٤١)، بتصرف يسير.

٢- أن التضرع إلى الله جلَّ وعلا هو روح الذكر والدعاء، فذكر ودعاء لا روح فيهما موات لا أثر لهما ولا ثمرة. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: (وتأمل كيف قال في آية الذكر: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾ الآية[١]، وفي آية الدعاء: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ [الأعراف:٥٥]، فَذَكَر التضرع فيهما معًا وهو التذلل، والتمسكن، والانكسار وهو روح الذِكْر والدعاء)[٢].

٣- أن التضرع إلى الله جلَّ وعلا من أهم الأسباب وأقرب الطرق لاستجابة الدعاء، ورفع البلاء، وجبر القلوب، وإغاثة الملهوف. يقول ابن القيم -رحمه الله تعالى-: (فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور! وذرة من هذا ونَفَسٌ منه أحب إلى الله من طاعات أمثال الجبال من المدلِّين المعجبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم)[٣].

---

(١) قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةً﴾ (الأعراف: آية ٢٠٥).
(٢) مجموع الفتاوى: (١٥/ ١٩-٢٠).
(٣) مدارج السالكين: (١/ ٧٣٦).

حقيقة التضرع إلى الله جلَّ وعلا ومعناه

معنى التضرع في اللغة:

يقول ابن فارس – رحمه الله تعالى – في كتابه «معجم مقاييس اللغة»: (ضَرَعَ): الضاد والراء والعين أصل صحيح يدلُّ على لين في الشي. من ذلك ضَرَعَ الرجلُ ضراعة، إذا ذلَّ، ورجل ضَرَعٌ: ضعيف.

قال ابن وَعْلة:

أناةً وحلماً وانتظارًا بهم غدًا
فما أنا بالوَانِي[١] ولا الضَّرَعُ[٢] الغُمْرُ[٣]

ومن الباب ضرع الشاة وغيره، سمي بذلك لما فيه من لين.

قال بعض أهل العلم: (اشتقاق ذلك من الضرع، كأنهما ارتضعا من ضرع واحد، وشاة ضريع: كبيرة الضرع،

---

(١) الواني: التعب.

(٢) الضرع: الضعيف من الرجال.

(٣) الغُمْر: الذي لم يُجرِّب الأمور.

وضريعة أيضًا، ويقال لناحل الجسم: ضارع، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بني جعفر: «**مالي أراهما ضارعَين؟**»[١] ..)[٢].

حقيقة التضرع إلى الله جلَّ وعلا:

قال المناوي: (الضراعة: الخضوع والتذلل)[٣].

والتضرع: هو التذلل والتمسكن والانكسار لله جلَّ جلاله[٤].

والتضرع إلى الله جل جلاله من أعمال القلوب التي يتعبد المؤمن بها لله في سائر يومه وليلته، لأن التضرع إلى الله جل وعلا هو روح ولب الذكر والدعاء، والمؤمن الصادق مشتغل في يومه وليلته بين ذكر مقيد أو مطلق، أو دعاء عبادة أو دعاء مسألة، والتضرع ملازم لهما.

---

(١) رواه ملك في الموطأ: (١٦٨٠)، وأحمد في المسند: (٢٧٥١٠)

(٢) معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا: (٣/ ٣٩٥-٣٩٦).

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف: (٢٢٢).

(٤) انظر مجموع الفتاوى: (١٥/ ١٩).

وسأبين هذا المعنى إن شاء الله تعالى تحت عنوان **(التضرع في القرآن الكريم)**.

والناس متفاوتون في ذلك بقدر استحضارهم عظمة الله وجلاله وقدره وكبريائه في قلوبهم، فبقدر استحضار ذلك في قلوبهم يكون مشهد التضرع والخضوع والذل والانكسار بين يدي الله جلَّ جلاله.

يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى – وهو يتحدث عن مشاهد الخلق في المعصية: (المشهد الثاني عشر: وهو مشهد الذل والانكسار، والخضوع، والافتقار للرب جلَّ جلاله، فيشهد في كل ذرةٍ من ذراته الباطنة والظاهرة ضرورة تامة، وافتقارًا تامًا إلى ربه ووليه، ومن بيده صلاحه وفلاحه، وهداه وسعادته، وهذه الحال التي تحصل لقلبه لا تنال العبارةُ حقيقتها، وإنما تدرك بالحصول، فيحصل لقلبه كَسْرَة خاصة لا يشبهها شيءٌ – إلى أن قال رحمه الله تعالى – وأحب القلوب إلى الله سبحانه: قلب قد تمكنت منه هذه الكسرة، وملكته هذه الذلة؛ فهو ناكس الرأس بين يدي ربه، لا يرفع رأسه إليه حياء وخجلًا من الله)[1].

---

(١) مدارك السالكين: (١/ ٧٣٥).

التضرع إلى الله جل جلاله
في القرآن الكريم

لقد ذكر الله تعالى التضرع في عدة آيات من القرآن الكريم، وهذه الآيات ترجع إلى ثلاثة مباحث مهمة في حياة المؤمن هي:

أولاً: التضرع إلى الله جلَّ جلاله عند الدعاء.

ثانياً: التضرع إلى الله جلَّ جلاله عند الذكر.

ثالثاً: التضرع إلى الله جلَّ جلاله عند البأساء والضراء وعند المصائب والكروب.

وسأجعلها ثلاث مباحث لتتضح للقارئ الكريم.

المبحث الأول

التضرع إلى الله جلَّ جلاله عند الدعاء

قال تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾[الأعراف: ٥٥].

والدعاء هنا يشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة.

فدعاء العبادة: كالصلاة والصوم والزكاة والصدقة والحج وسائر العبادات.

ودعاء المسألة: هو طلب ما ينفع الداعي، وطلب كشف ما يضره ودفعه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – في قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف: ٥٥-٥٦].

(هاتان الآيتان مشتملتان على آدب نوعي الدعاء:

دعاء العبادة، ودعاء المسألة؛ فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة، وهذا تارة، ويراد به مجموعهما؛ وهما متلازمان فإن دعاء المسألة: هو طلب ما ينفع الداعي، وطلب كشف ما يضره ودفعه – إلى أن قال رحمه الله تعالى – فُعلم أن النوعين متلازمان، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة.

وعلى هذا فقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، يتناول نوعي الدعاء، وبكل فسرت الآية. قيل: أعطيه إذا سألني، وقيل: أثيبه إذا عبدني، والقولان متلازمان.

وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما، واستعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، بل هذا استعماله في حقيقته المتضمنة للأمرين جميعًا.

فتأمله فإنه موضوع عظيم النفع، وقلَّ ما يفطن له، وأكثر آيات القرآن دالة على معنيين فصاعدًا، فهي من هذا القبيل – إلى أن قال رحمه الله تعالى – إذا عرف هذا

فقوله تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ يتناول نوعي الدعاء، لكنه ظاهر في دعاء المسألة، متضمن دعاء العبادة ولهذا أمر بإخفائه وإسراره)[1].

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – بعض الحكم والفوائد من خصوصية الدعاء بالخفية في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾؛ فمن هذه الحكم والفوائد:

(**أحدها**: أنه أعظم إيمانًا؛ لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع الدعاء الخفي.

وثانيها: أنه أعظم في الأدب والتعظيم.

وثالثها: أنه أبلغ في التضرع والخشوع، الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده، فإن الخاشع الذليل إنما يسأل مسألة مسكين ذليل، قد انكسر قلبه، وذلت جوارحه، وخشع صوته، حتى أنه ليكاد تبلغ ذلته وسكينته وضراعته

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٥/ ١٠) وما بعدها.

إلى أن ينكسر لسانه، فلا يطاوعه بالنطق، وقلبه يسأل طالبًا مبتهلًا، ولسانه لشدة ذلته ساكنًا، وهذه الحال لا تأتي مع رفع الصوت بالدعاء أصلًا.

ورابعهـا: أنه أبلغ في الإخلاص.

وخامسها: إنه أبلغ في جمعية القلب على الذلة في الدعاء، فإن رفع الصوت يفرقه، فكلما خفض صوته كان أبلغ في تجريد همته وقصده للمدعو سبحانه.

وسادسها: وهو من النكت البديعة جداً أنه دال على قرب صاحبه للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد، ولهذا أثنى الله على عبده زكريا بقوله عز وجل: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]؛ فلما استحضر القلب قرب الله عز وجل، وأنه أقرب إليه من كل قريب أخفى دعاءه ما أمكنه ...)[1].

والمقصود أن المؤمن عليه أن يتضرع إلى الله جلَّ جلاله،

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٥/ ١٥-١٦) باختصار.

ويتذلل ويستكين وينكسر له جلَّ وعلا حال دعاء عبادته، وحال دعاء مسألته ليجد بإذن الله حلاوة الإيمان في قلبه، وأثر ذلك في سلوكه وفي حياته، وفي كشف ضره واستجابة دعاءه، ومن لم يجد ذلك فليراجع صدق تضرعه لله جل وعلا.

◉ نماذج من حياة النبي ﷺ وصحابته رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان على صدق التضرع لله جل وعلا في حال الدعاء:

لقد كان النبي ﷺ إمام المتضرعين وسيدهم؛ إذ كان دعاؤه كله تضرع واستكانة وتذلل لله جل وعلا، فمن ذلك:

١- تضرعه ﷺ في دعائه عند جوعه وحاجته:

عن أبي أمامة – رضي الله عنه – أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عَرَضَ عليَّ ربِّي ليجعل لي بطحاءَ مكَّة ذَهبًا**» **قلتُ**: «**لاَ يَارَبِّ، ولكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا، وأَجُوعُ يَوْمًا. – وَقَالَ ثَلَاثًا أو نَحْوَ هذا – فَإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إليكَ وَذَكَرتُكَ، وَإِذَا شَبِعْتُ شَكَرتُكَ وَحَمِدتُكَ**»[(١)].

---

(١) رواه أحمد: (٥/ ٢٥٤)، والترمذي: (٢٣٤٧)، واللفظ له، وقال حسن، وذكره ابن الأثير في جامع الأصول: (١٠/ ١٣٧) وقال مخرجه: إسناده حسن.

٢- تضرعه ﷺ في دعائه عشية يوم عرفة:

(وأما رسول الله ﷺ، فقد قضى عشية يومه ذلك، في حال من التضرع واللهج بالدعاء، حتى ظن أصحابه أنه قد صام يومه ذلك[١]، فأرسلت إليه أم الفضل بقدح لبن، وهو واقف على بعيره، فشرب منه والناس ينظرون إليه، وكان في دعائه رافعًا يديه إلى صدره، حتى رؤي بياض أبطيه، باسطًا كفيه كاستطعام المسكين، منكسرًا لربه عز وجل خاضعًا خاشعًا متذللًا له، مستغرقًا في مناجاته، كأنما يسارع لحظات هذا اليوم أن تفلت لحظة لا يَلْهَجُ فيها بذكر أو يُلِظُّ فيها بدعوة، حتى أنه عندما اضطربت به راحلته، فسقط خطامها تناوله بيد، وأبقى يده الأخرى مبسوطة يدعو بها. وكان ﷺ لهجًا بالثناء على الله تهليلًا وتحميدًا وتلبية)[٢].

---

(١) اختلف بعض الصحابة رضي الله عنهم في صوم النبي ﷺ يوم عرفة في حجة الوداع؛ فعن أم الفضل بنت الحارث: (أن أناساً اختلفوا عندها يوم عرفة في صوم النبي ﷺ، فقال بعضهم: هو صائم، وقال بعضهم: ليس بصائم؛ فأرسلت إليه بقدح وهو واقف على بعيره فشربه)، رواه البخاري: (١٦٦١).

(٢) كأنك معه: صفة حجة النبي ﷺ كأنك معه: (ص ٩٣-٩٥).

٣- تضرع عُلْبة بن زيد -رضي الله عنه- في دعائه:

لما أمر النبي ﷺ أصحابه بالاستعداد لغزوة تبوك، فأتى عُلْبةُ ونفرٌ معه -وهم البكاؤون- للنبي ﷺ ليحملهم لغزوة تبوك، فلم يجد عليه الصلاة والسلام ما يحملهم عليه: (وقام عُلْبة بن زيد فصلى من الليل وبكى، وقال: اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ورغَّبتَ فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوَّى به مع رسولك، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه، وإني أتصدَّق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها في مالٍ أو جسد أو عرض، ثم أَصبحَ مع الناس فقال النبي ﷺ: «**أين المتصدق هذه الليلة؟**» فلم يقم أحد، ثم قال: «**أين المتصدق؟ فليقم**»، فقام إليه فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «**أبشر، فوالذي نفس محمد بيده لقد كُتبت في الزكاة المتقبلة**»)[1].

٤- تضرع علي بن الفضيل بن عياض -رحمهما الله تعالى-:

عن عبد الصمد بن يزيد قال: سمعت الفضيل

---

(١) ذكره ابن إسحاق كما في دلائل النبوة: (٥/ ٢١٨)، وله شواهد، انظر: زاد المعاد، لابن القيم، (٣/ ٦٦٣).

يقول: أشرفت ليلة على عليّ، وهو في صحن الدار، وهو يقول: النار، ومتى الخلاص من النار؟ وقال لي: يا أبتِ سل الذي وهبني لك في الدنيا أن يهبني لك في الآخرة؛ ثم قال: لم يزل مَنكَسِر القلب حزينًا، ثم بكى الفضيل، ثم قال: كان يساعدني على الحزن والبكاء، يا ثمرة قلبي؟ شكر الله لك ما قد علمه فيك) [١].

٥- تضرع شيخ الإسلام ابن تيمية إذا أعيته المسائل واستعصت عليه:

ويقول ابن القيم – رحمه الله تعالى -: (شهدت شيخ الإسلام – قدس الله روحه – إذا أعيته المسائل واستعصت عليه فر منها إلى التوبة والاستغفار، والاستعانة بالله واللجأ إليه، واستنزل الصواب من عنده، والاستفتاح من خزائن رحمته فقلما يلبث المدد الإلهي أن يتتابع عليه مدًا، وتزدلف الفتوحات الإلهية إليه بأيتهن يبدأ) [٢].

---

(١) سير أعلام النبلاء: (٨/ ٤٤٤-٤٤٥).

(٢) إعلام الموقعين: (٤/ ١٧٢).

٦- تضرع أحد السلف وما فتح الله جل وعلا عليه بصدق تضرعه :

وقال بعض الشيوخ: (إنه ليكون لي إلى الله حاجة فأدعوه فيفتح لي من لذيذ معرفته وحلاوة مناجاته ما لا أحب معه أن يعجل قضاء حاجتي خشية أن تنصرف نفسي عن ذلك)[١].

٧- تضرع ابن القيم رحمه الله تعالى في دعائه أثناء مجاورته في مكة:

وقد ذكر ذلك في كتابه المفيد (مفتاح دار السعادة) مبيناً ما فتح الله عليه في مكة من إتمام أو ابتداء عدد من المؤلفات فيقول رحمه الله: (إذ كان هذا من بعض النُّزُل والتحف التي فتح الله بها عليَّ حين انقطاعي إليه عند بيته، وإلقائي نفسي ببابه مسكيناً ذليلاً، وتعرضي لنفحاته في بيته وحوله بكرةً وأصيلاً، فما خاب من أنزل به حوائجه،

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٣٣٣).

وعلق به آماله، وأصبح ببابه مقيماً وبحماه نزيلاً)[١].

٨- تضرع الإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى في دعائه:

لما حج رحمه الله وقف في الملتزم وسأل الله تعالى أن يظهر هذا الدين بدعوته، وأن يرزقه القبول عند الناس[٢].

---

(١) مفتاح دار السعادة: (١/ ١٢٦)، طبعة دار عالم الفوائد.

(٢) انظر: الدرر السنية، (١٢/ ٨).

المبحث الثاني

التضرع إلى الله جلَّ جلاله عند الذكر

قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

والذكر من أجل العبادات البدنية وأيسرها؛ وهو يشمل أنواعًا عدة: منها ما هو مطلق، ومنها ما هو مقيد.

فأما الذكر المقيد:

كالأذكار في الصلاة، وأذكار الصباح والمساء، ودخول المنزل والخروج منه، ودخول المسجد والخروج منه، وعند ركوب الدابة، وعند الأكل والشرب، وعند النوم والاستيقاظ منه وغيرها من الأذكار.

وأما الذكر المطلق:

كتلاوة القرآن، والاستغفار، والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وغيرها.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – الحكمة من خصوصية الذكر بالخيفة في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾. [الأعراف: ٢٠٥]

فيقول – رحمه الله تعالى –: (وخص الدعاء بالخفية لما ذكرنا من الحِكَم وغيرها[1]، وخص الذكر بالخيفة لحاجة الذاكر إلى الخوف، فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها؛ ولا بد لمن أكثر من ذكر الله أن يثمر له ذلك محبته، والمحبة ما لم تقترن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها بل تضره؛ لأنها توجب التواني والانبساط، وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أن استغنوا بها عن الواجبات، وقالوا: المقصود من العبادات هو عبادة القلب وإقباله على الله، ومحبته له، فإذا حصل المقصود فالاشتغال بالوسيلة باطل.

---

(١) قد نقلت بعض الحِكَم في: (ص ٣٩-٤٠).

ولقد حدثني رجل أنه أنكر على بعض هؤلاء خلوة له ترك فيها الجمعة، فقال له الشيخ أليس الفقهاء يقولون: إذا خاف على شيء من ماله فإن الجمعة تسقط؟ فقال له: بلى.

فقال له: فقلب المريد أعز عليه من عشرة دراهم – أو كما قال – وهو إذا خرج ضاع قلبه، فحفظه لقلبه عذر مسقط للجمعة في حقه. فقال له: هذا غرور بك، الواجب الخروج إلى أمر الله عز وجلّ.

فتأمل هذا الغرور العظيم كيف أدى إلى الانسلاخ عن الإسلام جملة، فإن من سلك هذا المسلك انسلخ عن الإسلام العام، كانسلاخ الحية من قشرها، وهو يظن أنه من خاصة الخاصة وسبب هذا عدم اقتران الخوف من الله بحبه وإرادته) [1].

والمقصود أن المؤمن عليه أن يتضرع إلى الله ويتذلل

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٥/ ٢٠-٢١).

ويستكين وينكسر له جل وعلا عند الذكر ليجد حلاوة الإيمان في قلبه وأثره في قلبه وبدنه وفي سلوكه وفي حياته كلها، ومن لم يجد ذلك فليراجع صدق تضرعه لله جلّ وعلا حال ذكره لربه سبحانه.

نماذج من حياة النبي ﷺ وصحابته رضي الله عنهم والسلف الصالح رحمهم الله تعالى في صدق التضرع لله جل وعلا في حال الذكر:

قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الأسراء: ١٠٧-١٠٩].

قال القرطبي – رحمه الله تعالى –: (وقوله تعالى: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾؛ هذه مبالغة في وصفهم ومدحٌ لهم، وحقٌ لكل من توسَّم بالعلم وحصَّل منه شيئًا أن يجري إلى هذه المرتبة؛ فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع ويذل)[1].

وقد ذكر النبي في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «**ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**»[2].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١٣/ ١٨٩)، طبعة دار الرسالة العالمية.

(٢) رواه البخاري: (٦٦٠)، ومسلم: (١٠٣١)، والترمذي: (٢٣٩١).

قال ابن حجر – رحمه الله تعالى –: (قوله: (ذكر الله). أي: بقلبه من التذكر أو بلسانه من الذكر، (خاليًا) أي: من الخُلُو لأنه يكون حينئذٍ أبعد من الرياء والمراد خليًا من الالتفات إلى غير الله ولو كان في الملأ – إلى أن قال رحمه الله تعالى – قوله: (ففاضت عيناه)، أي: فاضت الدمعة من عينه، وأسند الفيض إلى العين مبالغة كأنها هي التي فاضت.

قال القرطبي: وفيض العين بحسب حال الذاكر وحسب ما يُكشف له، ففي حال أوصاف الجلال يكون البكاء من خشية الله، وفي حال أوصاف الجمال يكون البكاء من الشوق إليه) [1].

والبكاء من خشية الله حال الذكر علامة من علامات خضوع القلب وتضرعه وذله واستكانته لله جلّ وعلا.

وهنا أذكر بعض الأمثلة من حياة النبي ﷺ وصحابته الكرام رضي الله عنهم والسلف الصالح في تضرعهم حال الذكر:

---

(١) فتح الباري: (٢/ ١٢٧).

١- عن عبدالله بن الشخير – رضي الله عنه – (قال: رأيت رسول الله يُصلي وفي صدره أزيزٌ كأزيز المرجل من البكاء ﷺ)[١].

٢- وعن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – عن رسول الله ﷺ – في حديث طويل – وإذا ركع قال: «**اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري، ومخي، وعظمي، وعصبي**»، وإذا سجد قال: «**اللهم لك سجدت وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين**»[٢].

٣- وعن عطاء قال: (دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها فقال عبيد بن عمير: حدِّثينا

---

(١) رواه أبو داود: (٩٠٤)، والنسائي: (٣/ ١٣)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: (ص ٥٤٤).

(٢) رواه مسلم: (٧٧١).

بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ فبكت وقالت: قام ليلة من الليالي، فقال: يا عائشة ذريني أتعبد لربي. قالت: قلت: والله إني لأحب قربك، وأحب ما يسرك. قالت: فقام وتطهر، ثم قام يصلي، فلم يزل يبكي حتى بل حجره، ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل الأرض، وجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله تبكي، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً. لقد أنزلت عليَّ الليلة آيات، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[1]. [البقرة: ١٦٤]

يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى –: (ثمّ شرع له بأن يخضع للمعبود سبحانه بالركوع خضوعًا لعظمته واستكانةً لهيبته وتذللًا لعزته، فثنى العبد له صلبه،

---

(١) صحيح ابن حبان: (٥٢٣)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: (١٤٦٨).

ووضع له قامتَه، ونكَّس له رأسه، وحنى له ظهره، معظمًا بتسبيحه المقترن بتعظيمه، فاجتمع له خضوع القلب وخضوع الجوارح وخضوع القول، على أتم الأحوال، وجمع له في هذا الذكر بين الخضوع وصفُ العبد، والعظمة وصفُ الرب – إلى أن قال رحمه الله تعالى – ثمّ شرع له أن يكبّر ويَخِرَّ ساجدًا، ويُعطي في سجوده كل عضو من أعضائه حظه من العبودية، فيضع ناصيته بالأرض بين يدي ربه مسندةً، راغمًا له أنفه خاضعًا له قلبه، ويضع أشرفَ ما فيه وهو وجهه بالأرض ولا سيما على التراب، مُعفِّرًا له بين يدي سيده، راغمًا له أنفه، خاضعًا له قلبه وجوارحه، متذللًا لعظمته، خاضعًا لعزته، مستكينًا بين يديه، أذَّل شيء وأكسرَه لربه تعالى، مسبِّحًا له بعلوِّه في أعظم سفوله، قد صارت أعاليه ملويَّة لأسافله ذلًا وخضوعًا وانكسارًا، وقد طابق قلبه حال جسمه، فسجد القلب كما سجد الوجه)[1].

---

(١) الكلام على مسألة السماع: (ص ١٠٤-١٠٥).

٤- عن عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: (قال لي رسول الله ﷺ: «**اقرأ عليَّ القُرآن**» قال: فقلت: يا رسول الله أقرأُ عليك وعليك أُنزل؟. قال: «**إني أَشتهي أن أسمعه من غيري**»، فقرأتُ النساء حتى إذا بلغتُ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾[النساء:٤١] رفعتُ رأسي، أو غمزني رجُلٌ إلى جنبي فرفعتُ رأسي فَرَأيتُ دُمُوعهُ تَسِيلُ)[(١)].

٥- عن جابر بن عبدالله – رضي الله عنهما – واصفًا حال النبي ﷺ في الطواف: «**فبدأ بالحجر فاستلمه، وفاضت عيناه بالبكاء**»[(٢)].

٦- وقال أيضًا –رضي الله عنه –واصفًا حال النبي لما أفاض من عرفات: «**أفاض رسول الله ﷺ وعليه السكينة**»[(٣)].

---

(١) رواه البخاري: (٤٥٨٢)، ومسلم: (٨٠٠)، واللفظ له.

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى: (٥/ ٧٤)، وقال ابن كثير في السيرة النبوية: (٤/ ٣١٧)، وهذا إسناد حسن.

(٣) رواه النسائي: (٣٠٢٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي: (٢٨٢٧).

٧- عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: (كان أبو بكر إذا قرأ القرآن كثير البكاء)، زاد بعضهم (في صلاة وغيرها) [١].

٨- عن علقمة بن أبي وقاص قال: (كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ في العشاء الآخرة سورة يوسف، قال: وأنا في مؤخر الصف، حتى إذا ذكر يوسف سمعت نشيجه، وأنا في مؤخرة الصفوف) [٢].

٩- عن أبي سلمة: (كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى وهو جالس في المجلس، يا أبا موسى ذكرنا ربنا فيقرأ عنده أبو موسى)[٣].

١٠- عن عبدالله بن عروة بن الزبير قال: قلت لجدتي أسماء: كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا سمعوا القرآن. قالت: تدمع أعينهم، وتقشعر جلودهم كما نعتهم الله)[٤].

---

(١) أخرجه ابن الأثير في جامع الأصول: (٢/ ٤٦٦).

(٢) مصنف عبدالرزاق: (٢٧٠٣).

(٣) رواه الدارمي: (٣٤٩٣)، وابن حبان: (٧١٩٦)، واللفظ له، وغيرهما.

(٤) شعب الإيمان، للبيهقي: (٢/ ٣٦٥).

يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى –: (كان أصحاب محمد ﷺ رضي الله عنهم، إذا اجتمعوا واشتاقوا إلى حادٍ يحَدُو بهم ليَطِيب لهم السيرُ، ومُحرِّكٍ يُحرِّك قلوبهم إلى محبوبهم، أمروا واحدًا منهم يقرأ والباقون يستمعون، فتطمئن قلوبهم، وتَفيضُ عيونُهم ويجدون من حلاوة الإيمان أضعافَ ما يجده السماعاتية من حلاة السماع، وكان عمر بن الخطاب إذا جلس عنده أبو موسى يقول: يا أبا موسى ذَكِّرْنا ربَّنا، فيأخذ أبو موسى في القراءة، وتعمل تلك الأقوال في قلوب القوم عملها)[1].

١١- تضرع أُسيد بن الحُضير رضي الله عنه حال قراءته للقرآن ونزول الملائكة لسماع صوته وقراءته:

عن أُسيد بن حُضير قال: (بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفَرَسه مَربوط عنده إذ جالت الفرس، فسكَتَ فسكَنت، فقرأ فجالت الفرس، فسكنت وسكت الفرس، ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف، وكان ابنهُ يحيى قريباً

(١) الكلام على مسألة السماع: (ص ٨٠-٨١).

منها فاشفق أن تُصيبه، فلما اجْتَرَّهُ رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدَّث النبي ﷺ فقال له: «**اقرأ يا ابن حُضَير اقرأ يا ابن حضير. قال فاشفقت يا رسول أن تطأ يحيى، وكان منها قريباً، فرفعت رأسي فانصرَفتُ إليه، فرفعتُ رأسي إلى السماء، فإذا مثلُ الظلة فيها أمثالُ المصابيح، فخرجتُ حتى لا أراها، قال: وتَدري ما ذاك؟ قال: لا. قال تلك الملائكةُ دَنت لصوتك، ولو قرأت لأصبَحت ينظر الناسُ إليها، لا تتوارى منهم**»[1].

قال ابن حجر رحمه الله تعالى في شرحه للحديث: (قال النووي: في هذا الحديث جواز رؤية الملائكة، كذا أطلق، وهو صحيح لكن الذي يظهر التقييد بالصالح مثلا والحسن الصوت، قال: وفيه فضيلة القراءة وأنها سبب نزول الرحمة وحضور الملائكة. قلت: الحكم المذكور أعم من الدليل، فالذي في الرواية إنما نشأ عن قراءة خاصة من سورة خاصة بصفة خاصة، ويحتمل من الخصوصية ما لم يذكر، وإلا لو كان على الاطلاق لحصل ذلك لكل قارئ)[2].

---

(١) رواه البخاري: (٥٠١٨).

(٢) فتح الباري: (٩/ ٦٤).

قال الذهبي رحمه الله تعالى في ترجمة أسيد بن الحُضير رضي الله عنه: (رُوي أن أسيداً كان من أحسن الناس صوتاً بالقرآن)[١].

١٢- تضرع ابن عباس رضي الله عنهما في قيامه الليل وترتيله القرآن:

قال ابن أبي مليكة: (صحبت ابن عباس رضي الله عنهما -يعني في السفر- فإذا نزل قام شطر الليل، يرتل القرآن حرفاً حرفاً، ويكثر في ذلك من النشيج والنحيب)[٢].

١٣- تضرع الحسن البصري رحمه الله تعالى عند قراءة القرآن:

عن محمد بن جحادة قال: (قلت لأم ولد الحسن البصري: ما رأيت منه -أي الحسن البصري-؟ فقالت: رأيته فتح المصحف فرأيت عينيه تسيلان، وشفتيه لا تتحركان)[٣].

---

(١) سير أعلام النبلاء: (١/ ٣٤١).

(٢) شعب الإيمان: (٢/ ٣٦٥).

(٣) شعب الإيمان، للبيهقي: (٢/ ٤١١).

١٤- تضرع شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عند ذكره لله:

يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى -: (حضرتُ شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إليَّ وقال: هذه غدوتي ولو لم أتغد هذا الغداء لسقطت أو كلاماً قريباً من هذا، وقال لي مرة: لا أترك الذكر إلا بنية إجمام النفس وإراحتها لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر أو كلام هذا معناه)[1].

(١) الوابل الصيب: (ص ٩٦).

المبحث الثالث
التضرع إلى الله جلَّ جلاله في البأساء والضراء وعند المصائب والكروب

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [المؤمنون: ٧٦].

إن التضرع إلى الله جلّ وعلا والتوبة والإنابة إليه من الذنوب الخاصة والعامة -التي فشت في بعض المجتمعات حتى أصبحت من عادات المجتمع وثقافته- من أعظم الأسباب لاتقاء غضب الله جل جلاله وسخطه، ومن أعظم الأسباب كذلك في دفع البلاء قبل وقوعه، وكشفه ورفعه بعد وقوعه عن الأفراد والمجتمعات.

وهذه الابتلاءات والكوارث والحروب والمجاعات التي تقع في البلاد القريبة منا، وما يحدث في مجتمعنا من غلاء الأسعار وجدب وقحط؛ ما هي إلا نذر لنا لنرجع إلى الله ونتوب له ونتضرع إليه؛ فقد يقع بنا ما وقع بغيرنا نسأل الله العفو والعافية.

فليس بيننا وبين الله نسب ولا قرابة، فهذه سنن الله الكونية في إهلاك الظلمة وفي عقوبة المذنبين سنن لا تتغير ولا تتبدل.

فهي سنن ماضية جارية على كل من تعرض لأسبابها، قال تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا﴾ [فاطر: ٤٣].

يقول الإمام البغوي – رحمه الله تعالى – في تفسيره لمعنى قوله تعالى ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢]: (أي: يتوبون ويخضعون، والتضرع: السؤال بالتذلل)[1].

---

(١) معالم التنزيل، للبغوي: (٢/ ٢٢).

ويقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي – رحمه الله تعالى –: (ويُفهم من الآية أن المسلم إذا ابتلاه ربه بمصائب الدنيا، من أمراض أو مصائب في الأموال أو جوع أو نحو ذلك، أن عليه أن يتضرع إلى ربه جل وعلا ليزيل عنه ذلك، لأنه وبَّخ هؤلاء وذمهم على عدم التضرع إليه عند نزول الشدائد بهم، هذا معنى قوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾، [الأنعام: ٤٣] ثم قال: ولكنهم لم يتضرعوا ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنعام: ٤٣] لأن القلوب القاسية تشتد كما تشتد الحجارة)[1].

والمقصود هنا أنه عند وقوع الابتلاءات والمصائب أو الحروب والمجاعات، يجب على المجتمع بأكمله التوبة النصوح، والتضرع والتذلل والانكسار لله جل وعلا ليرفع الله عنهم هذه المصائب وتلك الابتلاءات.

---

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير: (١/ ٢٥٠).

أما بالنسبة للأفراد فعلى من وقع عليه بلاء أو مصيبة في نفسه أو ماله أو في أهل بيته التوبة والتضرع إلى الله جل وعلا بقلب صادق حتى تزول عنه كربته وتكشف عنه ضراؤه.

ومن لم يجد كشفًا لكربته وزوالًا لمصيبته فليراجع أولًا صدق توبته بشروطها ثم ليراجع صدق تضرعه لربه وذله وانكساره بين يديه؛ فإن الله غفور رحيم لطيف شكور.

نماذج من حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في صدق التضرع إلى الله جل وعلا في حال البأساء والضراء والمصائب والكروب:

١- تضرع آدم وحواء عليهما الصلاة والسلام لما أخرجا من الجنة بسبب أكلهما من الشجرة التي نهيا عنها، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٢-٢٣].

٢- تضرع نوح عليه الصلاة والسلام لما دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، وعلم بوحي الله له: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦].

قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ [الصافات: ٧٥-٧٦].

٣- تضرع إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما ترك ابنه اسماعيل وأمه هاجر عليهما الصلاة والسلام في مكة.

قال تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: ٣٧].

٤- تضرع يعقوب عليه الصلاة والسلام لما فقد ابنه يوسف عليه الصلاة والسلام وأُتبع بابنه بنيامين.

قال تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يوسف: ٨٣].

وقال جل وعلا عنه: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [يوسف: ٨٦].

٥- تضرع موسى عليه الصلاة والسلام بعد خروجه من مصر، ودخوله مدين وسقيه الماء للمرأتين.

قال تعالى: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القصص: ٢٤].

فلما أظهر عليه الصلاة والسلام صدق افتقاره إلى ربه جل وعلا، مع صدق تضرعه في دعائه جاءه الفرج عاجلًا: ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ [القصص: ٤٥].

فأعقب الله جل وعلا بالفاء في قوله: ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا ﴾، الدالة على الترتيب والتعقيب المباشر.

فجاءه الأمن إذ كان خائفًا: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[القصص: ٢٥].

وجاءته الزوجة إذ كان عزبًا: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾[القصص: ٢٧].

وجاءه الرزق برعيه الغنم: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾[القصص: ٢٦].

وجاءه المسكن والمأوى بلبثه في مدين عشر حجج: ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾[القصص: ٢٧].

فما أعظمه من دعاء، وما أسرعها من إجابة.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى عن الافتقار إلى الله جل وعلا: (هو حقيقة العبودية ولبُّها)[1].

ويقول رحمه الله تعالى في موضع آخر: (فأكمل الخلق أكملهم عبودية وأعظمهم شهوداً لفقره وحاجته وضرورته

---

(١) مدارج السالكين: (٣/ ٢٨٦).

إلى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين، ولهذا كان من دعائه ﷺ: (**أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ...**)[١].

وكان يدعو: (**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**)[٢]، يُعلِّم ﷺ أن قلبه بيد الرحمن عز وجل لا يملك هو منه شيئاً، وأن الله عز وجل يصرفه كما يشاء، وكيف وهو يتلو قوله عز وجل: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤])[٣].

٦- وتضرعه عليه الصلاة والسلام عندما اختار من قومه سبعين رجلًا من خيارهم ليعتذروا لقومهم عند ربهم من عبادة العجل، فواعدهم ميقاتًا يحضرون فيه فلما حضروا، قالوا: يا موسى ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [الأعراف: ١٥٥] فـ﴿أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾؛ فصعقوا وهلكوا.

---

(١) رواه الحاكم، وصححه ووافقه الذهبي: (١/ ٥٤٥)، انظر: صحيح الترغيب والترهيب، للألباني، (٦٥٤).

(٢) رواه ابن ماجه: (٣٨٣٤) وغيره، وصححه الألباني في (صحيح سنن ابن ماجه): (٣٠٩٢).

(٣) طريق الهجرتين: (١/ ١٦-١٧)، طبعة دار عالم الفوائد.

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي – رحمه الله تعالى –: (فلم يزل موسى عليه الصلاة والسلام يتضرع إلى الله ويبتهل ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾ أن يحضروا ويكونوا في حالة يعتذرون فيها لقومهم فصاروا هم الظالمين ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾، أي: ضعفاء العقول، سفهاء الأحلام، فتضرع إلى الله واعتذر بأن المجترئين على الله ليس لهم عقول كاملة، تردعهم عما قالوا وفعلوا ..)[1].

٧- تضرع أيوب عليه الصلاة والسلام.

قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤].

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى عن دعاء أيوب عليه الصلاة والسلام: (جمع في هذا الدعاء بين: حقيقة التوحيد

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: (ص ٣٠٤)، طبعة مؤسسة الرسالة.

وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه، ووجد طعم المحبة في التملُّق له، والإقرار له بصفة الرحمة، وأنه أرحم الراحمين والتوسل إليه بصفاته سبحانه، وشدة حاجته هو وفقره، ومتى وجدَ المبتلى هذا كُشِفتْ عنه بلواه)[1].

٨- تضرع يونس عليه الصلاة والسلام وهو في بطن الحوت.

قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـْۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين؛ فإنه لم يدعُ بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له**»[2].

---

(١) الفوائد: (ص ٢٩٢)، طبعة دار عالم الفوائد.

(٢) رواه الترمذي: (٣٥٠٥) وغيره، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

٩- تضرع قوم يونس عليه السلام لما قاربهم العذاب وعاينوا أسبابه.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: ٩٨].

يقول ابن كثير – رحمه الله تعالى -: (والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس، وهم أهل نينوى وما كان إيمانهم إلا خوفًا من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعدما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندما جأروا إلى الله واستغاثوا بـه وتضرعوا له واستكانوا وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم فعندها رحمهم الله وكشف عنهم العذاب وأُخروا)[1].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٣/ ٢١٨-٢١٩)، طبعة دار ومكتبة دار الهلال.

١٠- تضرع زكريا عليه الصلاة والسلام بأن يرزقه الله الذرية الطيبة.

قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩٠].

◉ نماذج من حياة النبي ﷺ وصحابته رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان في صدق التضرع إلى الله في البأساء والضراء وحال المصائب والكروب:

١- تضرعه ﷺ يوم بدر:

عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: (لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين، وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلًا، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض**»، فما زال يهتف بربه مادًا يديه،

مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك)[١].

ونقل السهيلي عن قاسم بن ثابت رحمة الله على الجميع قوله: (وقال: إنما فعل ذلك الصديق مأويَّةً[٢] للنبي ﷺ ورقة عليه، لما رأى من نصبه في الدعاء والتضرع حتى سقط الرداء عن منكبيه، فقال له: «بعض هذا يا رسول الله». أي: لم تتعب نفسك هذا التعب، والله قد وعدك بالنصر، وكان رقيق القلب شديد الإشفاق على النبي ﷺ)[٣].

٢- تضرعه ﷺ عند كسوف الشمس وخسوف القمر:

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: (خسفت الشمس فقام النبي ﷺ فزعًا يخشى أن تكون الساعة، فأتى المسجد فصلى بأطول قيام وركوع وسجود رأيتُهُ قطُ يفعلُهُ،

---

(١) رواه البخاري: (٣٩٥٤)، (٤٨٧٧)، ومسلم: (١٧٦٣).

(٢) مأوية مأخوذة من أوى له أو إليه، رق له ورحمه.

(٣) الروض الأنف: (٥/ ١٢٩-١٣٠).

وقال: (هذه الآيات التي يرسل الله لا تكون لموت أحد ولا لحياته، ولكن يخوف الله به عباده؛ فإذا رأيتم شيئًا من ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره)[١].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: (انكسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ فقام رسول الله ﷺ إلى الصلاة، وقام الذين معه فقام قيامًا فأطال القيام ثم ركع فأطال الركوع .... فجعل ينفخ في آخر سجوده من الركعة الثانية ويبكي ويقول: «**لَمْ تَعِدْني هذا وأنا فيهم، لَمْ تَعِدْني هذا ونحن نستغفرك**» ثم رفع رأسه وانجلت الشمس ..)[٢].

يقول الإمام محمد بن نصر المروزي رحمه الله تعالى: (وأمر الله عباده أن يأتموا بمحمد ﷺ، وأمرهم محمد ﷺ إذا رأوا الآيات التي يخافون فيها العذاب أن يفزعوا إلى الصلاة، فقال: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، فإذا انكسفت،

---

(١) رواه البخاري: (١٠٥٩).

(٢) رواه النسائي: (١٤٩٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي: (١٤٠١-١٤٠٧).

فافزعوا إلى الصلاة، وفزع هو إلى الصلاة، ولا نعلم طاعة يدفع الله بها العذاب مثل الصلاة، فصلى عند الكسوف، بزيادة في الركوع، وبكى في سجوده وتضرع)[١].

٣- تضرعه ﷺ في الاستسقاء:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (خرج رسول الله ﷺ متبذلًا متواضعًا متضرعًا حتى أتى المصلى فرقى على المنبر ولم يخطب خطبتكم هذه؛ ولكن لم يزل في الدعاء والتضرع والتكبير ثم صلى ركعتين كما يصلي العيد)[٢]. وهذه صفة من صفات الاستسقاء التي فعلها النبي صلى الله عليه وسلم.

٤- تضرع العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه لله جل وعلا في دعائه، وذلك في أحد مغازيه حينما عطش الجيش ولم يجدوا ماءً:

(روَى سهمُ بن منجابٍ قال: غزونا مع العلاء بن

---

(١) تعظيم قدر الصلاة: (ص ١٤٠).

(٢) رواه أبو داود: (١١٦٥)، والترمذي: (٥٥٨)، والنسائي: (١٥٠٥)، وحسنه الألباني في صحيح سنن النسائي: (١/ ٤٨٦)، وفي غيره.

الحضرمي دَارِينَ[١]، فدعا بثلاث دعوات، فاستُجيب له؛ نزَلنا منْزلاً فطلب الماء فلم يجدْه، فقام فصلَّى ركعتين وقال: اللهم إنا عَبيدُك، وفي سبيلك، نُقاتلُ عدوَّك، اللهم اسْقِنا غَيْثاً نتوضَّأُ به ونشرَبُ، ولا يكونُ لأحدٍ فيه نصيبٌ غيرنا، فسِرْنا قليلاً فإذا نحن بماءٍ حين أقْلَعَت السماءُ عنه، فتوَضَّأنا منه وتزودنا، وملأْتُ إداوتي وترَكتُها مكانَها حتى أنظُرَ هل اسْتُجيب له أم لا، فسِرنا قليلاً ثم قلتُ لأصْحابي: نسِيتُ إداوتي، فرجَعتُ إلى ذلك المكان فكأنه لم يُصِبْه ماءٌ قطُّ)[٢].

٥- وتضرعه رضي الله عنه في دعائه عندما وقف هو وجيشه أمام البحر، وقد حال بينهم وبين عدوهم الماء، ولم يجدوا سفناً تحملهم:

قال سهم بن منجاب: (ثم سرنا حتى أتينا دارين والبحر بيننا وبينهم، فقال: يا عليمُ يا حليمُ، يا عليُّ يا عظيم، إنا عبيدُك، وفي سبيلك، نُقاتِلُ عدوَّك، اللهم

(١) دارين: فُرضة بالبحرين، والفرضة: محط السفن، يجلب إليها المسك من الهند، معجم البلدان: (٢/ ٥٣٧)، والوسيط: (ف ر ض).

(٢) البداية والنهاية، لابن كثير: (٩/ ٣١١).

فاجْعَل لنا إليهم سبيلاً فدخَلْنا البحر فلم يبلُغ الماءُ لُبودَنا[١]، ومشينا على متن الماء ولم يبتل لنا شيءٌ)[٢].

٦- تضرع خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها في دعائها عندما ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت رضي الله عنه حيث قال لها: (انت عليَّ كظهر أمي) فجاءت إلى رسول الله ﷺ تراجعه وتحاوره فيما قال زوجها.

(فقال رسول الله ﷺ: «**حرمت عليه**»، فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي، قد طالت صحبتي ونفضت له بطني، فقال رسول الله ﷺ: «**ما أراك إلا قد حرمت عليه، ولم أُومر في شأنك بشيء**»، فجعلت تراجع رسول الله ﷺ، وإذا قال لها رسول الله ﷺ: «**حرمتِ عليه**» هتف وقالت: أشكو إلى الله فاقتي وشدة حالي، وإن لي صِبيْة إن ضَممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: اللهم إني أشكو إليك، اللهم فأنزل على لسان نبيِّك، وكان هذا أول ظهار في الإسلام)[٣].

---

(١) اللبود: جمع لِبْد، وهو ما يوضع تحت السِّرج، الوسيط (ل ب د).

(٢) البداية والنهاية، لابن كثير: (٩/ ٣١١).

(٣) انظر: تفسير البغوي، معالم التنزيل، (٤/ ٣٣٧).

فاستجاب الله دعائها وفرج كربتها، وأنزل فيها وفي زوجها صدر سورة المجادلة ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾. [المجادلة: ١].

٧- تضرع امرأة من الأنصار في دعائها حين مات ولدها:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (عدنا شاباً من الأنصار، فما كان بأسرع من أن مات فأغمَضْناه، ومدَدْنا عليه الثوبَ، وقال بعضُنا لأمِّه: احتَسبيه. قالت: وقد مات؟! قلنا: نعم. قالت: أحقٌّ ما تقولون؟ قلنا نعم. فمدَّت يديها إلى السماء، وقالت: اللهمَّ إني آمنْتُ بك، وهاجرتُ إلى رسولك، فإذا نزلت بي شدةٌ دعوتُك ففرَّجتَها، فأسألُك اللهم ألا تحمِلَ عليَّ هذه المُصيبة. قال: فكشف الثوبَ عن وجهِه فما برحْنا حتى أكَلْنا وأكَل معنا)[1].

٨- تضرع رجل من اليمن في دعائه حين خرج للجهاد في سبيل الله فمات حماره:

عن أبي سبرة النخعي قال: (أقبل رجل من اليمن،

(١) البداية والنهاية: (٩/ ٥٠-٥١).

فلما كان ببطن الطريق، نفق حماره[١]، فقام فتوضأ ثم صل ركعتين، ثم قال: اللهم إني جئتُ من الدَّثينة مجاهداً في سبيلك وابتغاء مرضاتك، وأنا أشهد أنك تحيي الموتى وتبعث من في القبور، لا تجعل لأحدٍ عليَّ اليوم مِنَّة، اطلبُ إليك اليوم أن تبعث حماري، فقام الحمار ينْفُضَ أُذُنيه. قال البيهقي: هذا إسنادٌ صحيحٌ)[٢].

٩- تضرع الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى في دعائه لابنه علي:

كان الفضيل بن عياض – رحمه الله تعالى – إمامًا من أئمة هذه الأمة وعلْمًا من أعلامها، وقد ابتلاه الله جل وعلا بولد فيه نزق الشباب وطيشه، وقد اجتهد رحمه الله في تعليمه وتأديبه، ولكنه عجز عن ذلك.

فقام – رحمه الله تعالى – بين يدي ربه متضرعاً متذللًا منكسرًا مفتقرًا لله جل وعلا متجردًا من كل أحد سواه

---

(١) نفق حماره: أي مات.

(٢) البداية والنهاية: (٩/ ٥٠-٥١).

جلَّ شأنه، داعيًا: (اللهم إني اجتهدتُ أن أؤدب عليًا، فلم أقدر على تأديبه فأدبه أنت لي)[١].

فهدى الله جل وعلا بفضله وجوده عليًا وعُدَّ من عباد السلف، وما مات رحمه الله إلا وهو يصلي.

قال الذهبي رحمه الله تعالى عنه في ترجمته: (من كبار الأولياء مات قبل والده، قلت: خرج هو وأبوه من الضَّعف الغالب على الزُّهاد والصوفية، وعُدَّا في الثقات إجماعًا، وكان عليًا قانتًا لله، خاشعًا، وجلًا، ربانيًا كبير الشأن)[٢].

◉ وقفة:

فلكل رجل ابتلاه الله بولد عاق، أو مسرف على نفسه بالمعاصي، ولكل بيت ابتلي بنشوز الزوج أو الزوجة؛ وصدودهما عن بعضهما، عليكم بصدق التضرع إلى الله جل وعلا والإنكسار بين يديه، وصدق التجرد له فإنه قريب مجيب.

---

(١) سير أعلام النبلاء: (٨/ ٤٤٥).

(٢) سير أعلام النبلاء: (٨/ ٤٤٢-٤٤٣).

من ثمرات التضرع إلى الله جل جلاله

إن التضرع إلى الله جل وعلاوالتذلل له والإنكسار بين يديه له ثمرات عدة، وفوائد متنوعة منها:

١- أن التضرع إلى الله جل جلاله هو أوسع الأبواب وأقربها إلى محبة الله سبحانه وتعالى لعبده.

فالله جل وعلا يحب أصحاب القلوب المتضرعة المتذللة المنكسرة له جل وعلا يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى –: (والقصد: إن هذه الذلة والكسرة الخاصة تدخله على الله، وترميه على طريق المحبة، فيفتح له منها باب لا يفتح له من غير هذه الطريق، وإن كانت طرق سائر الأعمال والطاعات تفتح للعبد أبوابًا من المحبة)[1].

٢- قرب الله جل وعلا من أصحاب القلوب المتضرعة والمنكسرة والمتذللة له جل وعلا في عبادتها ودعائها، وهو قرب خاص؛ وليس هو القرب العام الذي يعني علمه ومراقبته وإحاطته لجميع الناس.

---

(١) مدارج السالكين: (١/ ٧٤٠).

يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى -: (وهذا القرب من الداعي: هو قربٌ خاصٌّ؛ ليس قربًا عامًا من كل أحدٍ، فهو قريبٌ من داعيه؛ وقريبٌ من عابده، وأقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجدٌ، وهو أخصُّ من قرب الإنابة وقرب الإجابة – الذي لم يُثبت أكثر المتكلمين سواه – بل هو قربٌ خاصٌّ من الداعي والعابد، كما قال النبي ﷺ راويًا عن ربِّه تبارك وتعالى: «**من تقرَّب مني شبرًا: تقرَّبت منه ذراعًا، ومن تقرَّب مني ذراعًا، تقرَّبت منه باعًا**» رواه البخاري ومسلم[1].

فهذا قربه من عابده، وأما قربه من داعيه وسائله: فكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، فيه الإشارة والإعلام بهذا القرب)[2].

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري: (٧٤٠٥)، ومسلم: (٢٦٧٥).

(٢) بدائع الفوائد: (٣/ ٨-٩).

ويقول ابن رجب الحنبلي – رحمه الله تعالى -: (فهو سبحانه وتعالى يتقرب من القلوب الخاشعة له كما يتقرب ممن هو قائم يناجيه في الصلاة وممن يعفِّر له وجهه في التراب بالسجود، وكما يتقرب من وفده وزوار بيته الوافدين بين يديه، المتضرعين إليه في الوقوف بعرفة، ويدنو ويباهي بهم الملائكة وكما يتقرب من عبادة الداعين له، السائلين له، المستغفرين من ذنوبهم بالأسحار، ويجيب دعاءهم، ويعطيهم سؤلهم، ولا جبر لانكسار العبد أعظم من القرب والإجابة)[1].

ويقول الشيخ السعدي – رحمه الله تعالى – مبنيًا ثمرة هذا القرب الخاص منه: (... وقرب خاص من عابديه، وسائليه، ومحبيبه، وهو قرب يقتضي المحبة، والنصرة،

---

(١) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي: (١/ ٢٩٣)، ضمن رسالة (الذل والانكسار لله العزيز الجبار).

والتأييد في الحركات، والسكنات، والإجابة للداعين، والقبول والإثابة – إلى أن قال رحمه الله تعالى – وهذا النوع قرب يقتضي ألطافه تعالى، وإجابته لدعوتهم، وتحقيقه لمراداتهم، ولهذا يقرن باسمه (القريب) اسمه (المجيب)، وهذا القرب قرب لا تدرك له حقيقة، وإنما تعلم آثاره من لطفه بعبده، وعنايته به وتوفيقه، وتسديده، ومن آثاره الإجابة للداعين والإنابة للعابدين)[1].

ولهذا دائمًا ما تجد – بتوفيق الله – أن صاحب القلب المتضرع المنكسر المتذلل لله جل وعلا منصور مجاب الدعوة موفق مسدد مهديٌّ للحق عند اختلاف الناس، وعند النوازل والفتن، وعند التباس الحق بالباطل، وعند تعارض المصالح والمفاسد فيما بينها، فالله جلّ جلاله يوفق صاحب القلب المتضرع لما اختلف فيه من الحق بإذنه جلّ وعلا.

---

(١) الحق الواضح المبين: (ص ٦٤٠).

٣- أن التضرع إلى الله جلّ وعلا هو روح الدعاء والذكر ولبهما، وبه يجد الداعي والذاكر في قلبه حلاوة الإيمان والطمأنينة والأنس واللذة، كما يجد أثر ذلك على روحه وبدنه، بل وأثره في حياته كلها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى -: (لكن العبد قد تنزل به النازلة فيكون مقصوده طلب حاجته، وتفريج كرباته، فيسعى في ذلك بالسؤال والتضرع، وإن كان ذلك من العبادة والطاعة، ثم يكون في أول الأمر قصده حصول ذلك المطلوب: من الرزق والنصر والعافية مطلقًا، ثم الدعاء والتضرع يفتح له من أبواب الإيمان بالله عز وجل ومعرفته ومحبته، والتنعم بذكره ودعائه، ما يكون هو أحب إليه وأعظم قدرًا عنده من تلك الحاجة التي أهمته. وهذا من رحمة الله بعباده، يسوقهم بالحاجات الدنيوية إلى المقاصد العلية الدينية)[1].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: (٢/ ٣١٢-٣١٣).

٤- أن التضرع إلى الله جل وعلا في الدعاء سبب عظيم في قرب الإجابة، وتعجيل الرزق والنصر وكشف الكربات وإقالة العثرات.

يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى -: (فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور!، وذرة من هذا ونَفَسٌ منه أحب إلى الله من طاعات أمثال الجبال من المدلِّين المعجبين وعلومهم وأحوالهم)[1].

٥- أن التضرع إلى الله جلّ وعلا من أعظم الأسباب للوقاية من عذابه سبحانه وسخطه.

إن مما شرعه الله سبحانه وتعالى، وجعله سببًا – بل هو من أعظم الأسباب – لاتقاء عذابه وسخطه، دعاءه والتضرع إليه سبحانه وتعالى، والتوبة والاستغفار والإنابة، فنحن في هذه الأيام أحوج ما نكون إليها، وإن كنا محتاجين إليها في كل وقت وفي كل حين، لكن مع هذه الفتن، ومع هذه الأحداث فنحن أحوج ما نكون إلى ألا ننسى ذلك.

---

(١) مدارج السالكين: (١/ ٧٣٦).

٦- أن التضرع إلى الله جل جلاله من أعظم الأسباب في رفع البلاء بعد وقوعه، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (فالله يبتلي عبده ليسمع تضرعه ودعاءه والشكوى إليه، ولا يحب التجلُّد عليه، وأحب ما إليه انكسار قلب عبده بين يديه وتذلله له، وإظهار ضعفه وفاقته وعجزه وقلة صبره، فاحذر كل الحذر من إظهار التجلُّد عليه، وعليك بالتضرع والتمسكن وإبداء العجز والفاقة والذل والضعف، فرحمته أقرب إلى هذا القلب من اليد للفم)[1].

٧- أن التضرع إلى الله جلَّ جلاله من أسباب السعادة في الآخرة بدخول الجنة، والنجاة من النار.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [هود: ٢٣].

يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي – رحمه الله تعالى – في تفسير هذه الآية: (يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾،

---

(١) الروح: (٢/ ٧٢٣)، طبعة دار عالم الفوائد.

بقلوبهم؛ أي: صدقوا واعترفوا، لما أمر الله بالإيمان به من أصول الدين وقواعده.

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المشتملة على أعمال القلوب والجوارح وأقوال اللسان.

﴿وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: خضعوا لله واستكانوا لعظمته، وذلوا لسلطانه، وأنابوا إليه بمحبته وخوفه ورجائه والتضرع إليه.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين جمعوا تلك الصفات.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لأنهم لم يتركوا من الخير مطلبًا إلا أدركوه ولا خيرًا إلا سبقوا إليه)[1].

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: (ص ٣٨٠)، طبعة دار الرسالة.

الأسباب المعينة على التضرع إلى الله جل جلاله

إن الله جلّ وعلا بفضله ورحمته قد هيأ للعبد أسباباً كثيرة تكون عونًا له على القيام بعبودية التضرع إليه جلّ جلاله، فبقدر أخذ العبد بها يكون صدق تضرعه واستكانته وذله لربه جل وعلا، فمن هذه الأسباب:

١ - معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العلا، لأن العبد من خلالها يعرف عظمة الله وقدرته وجلاله وكبريائه، وهذا يثمر في قلبه الخضوع والتضرع والتذلل له جلّ جلاله.

يقول ابن القيم – رحمه الله تعالى – مبينًا التلازم بين معرفة صفات الله وما تثمر هذه المعرفة من عبوديات تقوم في قلب العبد وجوارحه: (لكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها أعني: من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها، هذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح. فعلم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع، والعطاء، والمنع، والخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة يثمر له: عبودية التوكل عليه باطنًا،

ولوازم التوكل وثمراته ظاهرًا، - إلى أن قال رحمه الله - وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزته تثمر له: الخضوع والاستكانة، والمحبة، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعًا من العبودية الظاهرة هي موجباتها .. فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات)[1].

٢- نظر العبد في عيوبه ونقائصه، وفقره وحاجته لربه جلّ وعلا، وأن ما به من نعمة دينية أو دنيوية فمن الله، وأن الله جل جلاله لو ترك عبده لنفسه طرفة عين لهلك، فمعرفة هذا الأمر يثمر في العبد التضرع والتذلل والتمسكن لله رب العالمين.

يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى -: (لا ينتفع بنعمة الله بإلايمان والعلم إلا من عرفَ نفسه، ووقف بها عند قدرها،ولم يتجاوزهُ إلى ما ليس له، ولم يَتَعَدَّ طورَه، ولم يقل: هذا لي، وتيقَّن أنه لله ومن الله وبالله؛ فهو المانُّ به ابتداءً وإدامةً بلا سبب من العبد ولا استحقاق منه، فتُذِلُّه

---

(١) مفتاح دار السعادة: (٢/ ٩٠) باختصار.

نِعمُ الله عليه، وتَكْسِره كسرةَ من لا يرى لنفسه ولا فيها خيرًا البتة، وأن الخير الذي وصل إليه فهو لله وبه ومنه، فتُحدِثُ له النعمُ ذلًّا وانكسارًا عجيبًا لا يُعبَّرُ عنه؛ فكلما جدَّد لهُ نعمةً ازداد له ذُلًّا وانكسارًا وخشوعًا ومحبَّةً وخوفًا ورجاءً)[١].

٣- تطهير القلب من أمراض الكبر والتفاخر والتعالي، فإنها أمراض تناقض التواضع والتضرع والتذلل والاستكانة.

يقول ابن رجب الحنبلي -رحمه الله تعالى-: (فكذلك القلب إن خشع فإنه تسكن خواطره وإراداته الرديئة التي تنشأ من اتباع الهوى، وينكسر ويخضع لله عز وجل، فيزول بذلك ما كان فيه من النأو[٢] والترفع والتكبر والتعاظم)[٣].

يقول ابن قدامة المقدسي -رحمه الله تعالى- في علاج الكبر: (**اعلم**: أن الكبر من المهلكات، ومداواته فرض عين،

---

(١) الفوائد: (ص ٢٠١).

(٢) النأو: لغة في (النأي) وهو البعد.

(٣) مجموعة الرسائل للحافظ ابن رجب الحنبلي: (١/ ٢٩٢)، ضمن رسالة (الذل والإنكسار لله العزيز الجبار).

ولك في معالجته مقامان:

الأول: في استئصال أصله وقطع شجرته، وذلك بأن يعرف الإنسان نفسه ويعرف ربه، فإنه إذا عرف نفسه حق المعرفة، علم أنه أذل من كل ذليل، ويكفيه أن ينظر في أصل وجوده بعد العدم من تراب، ثم من نطفة خرجت من مخرج البول، ثم من علقة، ثم من مضغة، فقد صار شيئًا مذكورًا، بعد أن كان جمادًا لا يسمع ولا يبصر، ولا يحس ولا يتحرك، فقد ابتدأ بموته قبل حياته، وبضعفه قبل قوته، وبفقره قبل غناه.

وقد أشار الله تعالى إلى هذا بقوله: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۝١٩﴾ [عبس: ١٨-١٩]، ثم امتن عليه بقوله: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ [عبس: ٢٠]، وبقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]؛ فأحياه بعد الموت، وأحسن تصويره، وأخرجه إلى الدنيا، فأشبعه وأرواه، وكساه وهداه وقوَّاه.

فمن هذا بدايته، فأي وجه لكبره وفخره؟ - إلى أن قال رحمه الله – وأما معرفة ربه، فيكفيه أن ينظر في آثار قدرته وعجائب صنعته، فتلوح له العظمة، وتظهر له المعرفة، فهذا هو العلاج القالع لأصل الكبر)[1].

٤- السعي إلى ترقيق القلب والأخذ بأسبابه، ليتجنب العبد قسوة القلب لأن ذلك مانع من موانع التضرع والاستكانة والتذلل.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: ٤٣].

يقول مالك بن دينار: (ما ضُرب عبدٌ بعقوبة أعظم من قسوة قلب، وما غضب الله على قومٍ إلا نزع الرحمة من قلوبهم)[2].

وقد ذكر ابن رجب الحنبلي – رحمه الله تعالى – بعض

---

(١) مختصر منهاج القاصدين: (ص ٢٥٧-٢٥٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: (١٥/ ١٦١).

الأسباب التي بها تزول عن القلب القسوة فيقول:

وأمَّا مزيلات القسوة، فمتعددة أيضًا:

فمنها: كثرةُ ذكر الله الذي يتواطأ عليه القلب واللسان؛ قال المعلَّى بن زياد: أن رجلًا قال للحسن: يا أبا سعيد، أشكو إليك قسوة قلبي، قال: أدنه من الذكر.

وقال وهيب بن الورد: نظرنا في هذا الحديث، فلم نجد شيئًا أرق لهذه القلوب ولا أشد استجلابًا للحق من قراءة القرآن لمن تدبَّره.

وقال يحيى بن مُعاذ، وإبراهيم الخواص: دواءُ القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتفكر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرّع عند السَّحَر، ومجالسة الصالحين.

والأصلُ في إزالة قسوة القلوب بالذكر قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾.

ومنها: الإحسان إلى اليتامى والمساكين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: (أن رجلًا شكا إلى

رسول الله ﷺ قسوة قلبه، فقال: «**إن أحببت أن يلين قلبك فامسح رأس اليتيم وأطعم المساكين**» إسناده جيد[١].

ومنها: كثرة ذكر الموت.

ذكر ابن أبي الدنيا عن صفية: (أن امرأة أتت عائشة لتشكو إليها القسوة، فقالت: أكثري ذكر الموت، يرق قلبك وتقدرين على حاجتك، قالت: ففعلت فآنست من قلبها رشدًا، فجاءت تشكر لعائشة رضي الله عنها).

ومنها: زيارةُ القبور بالتفكر في حال أهلها ومصيرهم؛ وقد سبق قولُ أحمد للذي سأله ما يُرقُّ قلبي؟ قال: ادخل المقبرة.

وقد ثبت في صحيح مسلم، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**زُوروا القبور، فإنَّها تُذكِّر الموت**»[٢].

ومنها: النظر في ديار الهالكين، والاعتبار بمنازل الغابرين.

روي ابن أبي الدنيا في كتاب (التفكر والاعتبار):

---

(١) رواه أحمد: (٢/ ٢٦٣).

(٢) رواه مسلم: (٩٧٦).

بإسناده عن أبي الوليد أنه قال: كان ابن عمر إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتي الخربة فيقف على بابها، فينادى بصوت حزين، فيقول: أين أهلك؟ ثم يرجع إلى نفسه، فيقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

ومنها: أكل الحلال.

روى أبو نعيم وغيره عن طريق عمر بن صالح الطرسوس قال: ذهبت أنا ويحيى الجلاء إلى أبي عبدالله أحمد بن حنبل فسألته، وكان إلى جنبه بوران وزهير الجمال، فقلت: رحمك الله يا أبا عبدالله بمَ تلين القلوب؟ ثم أطرق ثم رفع رأسه فقال: (يا بني بأكل الحلال)[1].

٥- يجب على العبد التذكر والاتعاظ والاعتبار بما يحدث من حوله سواءً في مجتمعه، أو في المجتمعات الأخرى من حوله، وعدم الإعراض والنسيان والغفلة لأنها أمراض قلبية تصدُّ العبد عن صدق التضرع والتذلل والاستكانة لله رب العالمين.

---

(١) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي: (١/ ٢٦٣-٢٦٩) باختصار. ضمن رسالة (ذم قسوة القلب).

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٥].

يقول ابن كثير – رحمه الله تعالى – عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾. (أي: أعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم)[1].

٦- الحذر كل الحذر من أهل الشهوات والشبهات والأهواء الذين يفسرون ما يحدث من كوارث وزلازل، وكثرة وقوع ظاهرة كسوف الشمس وخسوف القمر، وقحط وجدب وفيضانات، ونقص في الأموال والأنفس والثمرات، وغلاء في الأسعار وغيرها من الابتلاءات التي وقعت وتقع في مجتمعهم أو من حولهم يفسرونها

(١) تفسير القرآن العظيم: (٢/ ٤١١)، طبعة دار ومكتبة الهلال بيروت.

بتفسيرات طبيعية دنيوية بحتة، دون النظر إلى سنن الله عز وجل في معاقبة العصاة والظالمين.

بل إنهم يصمون كل من يفسر ما يحدث من خلال سنن الله عز وجل بقلة العلم والجهل، وربما اتهموهم بتفسيق المجتمعات أو تكفيرهم.

فهم بهذا يخادعون الناس، ليصدوهم عن الرجوع إلى الله والتوبة إليه والتضرع والتذلل له، فيستمروا في غفلتهم وبعدهم عن الله جل وعلا، حينها تقع عقوبات الله المستأصلة للدول والمجتمعات، نسأل الله العفو والعافية.

٧- عدم الركون إلى الدنيا وزخرفها، والحذر من أهلها الذين فتنوا بها، لأن ذلك سبب في الغفلة، وطول الأمل، وعدم الاكتراث بالنذر التي تقع مرة بعد مرة.

٨- مصاحبة الأخيار الذين يُذكِّرون المرء إذا نسي، ويعينونه إذا ذكر، الذين قال الله جلَّ وعلا عنهم:

﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾ [الكهف: ٢٨].

فهؤلاء الذين يدعون ربهم ويذكرونه بتضرع وذل وانكسار وخضوع وإخبات، ويخلصون جميع أعمالهم لوجه الكريم؛ هم الذين قال عنهم: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ...﴾ الآية [الحج: ٣٤ – ٣٥].

وهم الذين قال عنهم النبي ﷺ: «**ألا أخبركم بخياركم**» قالوا: بلى قال: «**الذين إذا رؤوا ذكر الله**»(١).

٩- القراءة في قصص الأنبياء وسير السلف الصالح الذين تحيا القلوب بأخبارهم، وتعلو الهمم بقصصهم.

ورحم الله الشاعر محمود غنيم إذ يقول:

الله يشهد ما قلبت سيرتهم يوماً وأخطأ دمع العين مجراه

فقد ضربوا أروع الأمثلة في صدق التضرع إلى الله جل جلاله في دعائهم وذكرهم لله جلَّ وعلا.

وما ذكرت في بعض النماذج من حياتهم وسيرهم إلا غيض من فيض.

---

(١) رواه أحمد: (٢٧٠٥١) وغيره، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد: (٢٤٦).

١٠- دعاء العبد ربه جلَّ وعلا والإلحاح عليه في جميع الأوقات؛ خاصة في الأسحار وأوقات الإجابة أن يهبه قلباً متضرعاً منكسراً له جلَّ شأنه.

يقول مطرف بن عبدالله الشخير رحمه الله تعالى: (تذاكرت ما جماع الخير؛ فإذا الخير كثير: الصيام والصلاة وإذا هو في يد الله، وإذا لا تقدر على ما في يد الله إلا أن تسأله فيعطيك، فإذا جماع الخير الدعاء)[١].

١١- الإكثار من تلاوة القرآن وترتيله بخشوع وخضوع وتضرع واستكانة، وإن من أهم الأسباب المعينة على ذلك تحسين الصوت بالقرآن.

قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

وقال ﷺ: «**ليس منا من لم يتغن بالقرآن**»[٢].

وقال ﷺ: «**زينوا القرآن بأصواتكم**»[٣].

فكم من قارئ للقرآن لديه ملكة وقدرة على تحسين

---

(١) الإنابة، لابن بطة: (٢/ ١٩٥).

(٢) رواه البخاري: (٧٥٢٧).

(٣) أبو داود: (١٤٦٨)، مكتبة المعارف قال الألباني: صحيح، والنسائي: (١٠١٦).

صوته وتزيينه، ولكنه لم يبذل جهده في ذلك، ولم يحاول الخروج عن التلاوة المألوفة المعهودة لديه.

وليتذكر العبد المؤمن أن طريقة تلاوته وترتيله للقرآن في الدنيا، هي التي سيرتل بها القرآن عندما يدخل الجنة -بفضل الله ورحمته- ويقال له إن كان من أهل القرآن: «اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»(١).

١٢- الحرص على سماع القرآن من القراء أصحاب التلاوات الحسنة الخاشعة التي تلين القلوب وتخضع عند سماعها.

قال ﷺ: «**إن من أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذي إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله**»(٢).

(١) أبو داود: (١٤٦٤)، مكتبة المعارف، قال الألباني: حسن صحيح، والترمذي: (٢٩١٥).

(٢) رواه ابن ماجه: (١٣٣٩) وغيره، وصححه الألباني في صحيح الجامع: (٢٢٠٢).

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، حمداً كثيراً مباركاً فيه كما يليق بجلاله وعظيم سلطانه، ثم الحمد له على نعمه الجليلة وآلائه الجسيمة؛ ومن ذلك ما يسر جلَّ جلاله لي من جمع وإن كان يسيراً في هذا الموضوع العظيم الذي يحتاجه المؤمن في سائر يومه وليلته ألا وهو (التضرع إلى الله جلَّ جلاله).

كما أسأله جلَّ وعلا أن يكون هذا الكتاب خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به كاتبه وشيخي عبدالرحمن ابن ناصر البراك، وقارئه.

وما كان من صواب فمن الله جل جلاله وحده؛ فله الحمد والشكر، وما كان من خطأ فمن نفسي والشيطان وأستغفر الله العلي العظيم وأتوب إليه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفهرس

مقدمة ٥
فضل الدعاء ٩
فضل الذكر ١٦
مكانة ومنزلة التضرع إلى الله في الدين ٢٢
حقيقة التضرع إلى الله جل وعلا ومعناه ٢٤
التضرع إلى الله جل جلاله في القرآن الكريم ٢٧
المبحث الأول: التضرع إلى الله جلَّ جلاله عند الدعاء ٢٨
- نماذج من حياة النبي ﷺ وصحابته رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان في صدق التضرع إلى الله جل جلاله حال الدعاء..... ٣٢

المبحث الثاني: التضرع إلى الله جلَّ جلاله عند الذكر ٣٨
نماذج من حياة النبي ﷺ وصحابته رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان في صدق التضرع إلى الله جل جلاله حال الذكر ٤١

المبحث الثالث: التضرع إلى الله جلَّ جلاله في البأساء والضراء وعند المصائب والكروب ٥٢

- نماذج من حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في صدق التضرع إلى الله جل وعلا في حال البأساء والضراء و المصائب والكروب..... ٥٥
- نماذج من حياة النبي ﷺ وصحابته رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان في صدق التضرع إلى الله في البأساء والضراء وحال المصائب والكروب..... ٦٣
- من ثمرات التضرع إلى الله جل جلاله ٧٢
- الأسباب المعينة على التضرع إلى الله جل جلاله ٨٠

الخاتمة ٩٣

الفهرس ٩٤